ابن أبي الرَّبيع الإشبيليِّ السَّبتيِّ وأثره النَّحوي

أ.جميلة راجاح
جامعة مولود معمري تيزي-وزو -الجزائر

مقدّمة: عرفت بلاد المغرب والأندلس في القرنين السّادس والسَّابع الهجريَّيْن حركةً علميّةً مزدهرةً في شتى العلوم رغم الظّروف السياسيَّة الّتي كانت تمرُّ بها من حين إلى آخر، حيث لم يُؤثِّر ذلك الوضع على النَّشاط الفكريِّ تأثيرًا كبيرًا فهناك العديد من العلماء الّذين تصدّوا للتَّدريس والتَّأليف، وكان أكثر العلوم حظًّا الدِّينيَّة ثمّ تليها اللّغويَّة والنَّحويَّة خاصّة الّتي بلَغَت أَوجّها من الرّقي والنُّضج في هذه الفترة نظرًا للتّداخل الثقافيِّ بين القطرين – المغرب والأندلس- الّذي نتج عن الوحدة السياسيَّة والاجتماعيَّة والعلميَّة بينهما منذ عصر الدّولة المرابطيّة لمّا كانت الأندلس تحت الحكم المغربيِّ إلى غاية عصر المرِّينيّة، الأمر الّذي جعل العلماء والطَّلبة يتنقَّلون بِسهولة بين المراكز الثّقافيَّة للاستزادة من العلم ونشره كمراكش وفاس وبجاية وتلمسان والقيروان وإشبيلية وغرناطة وسِواها. وعلى هذا قصدَ الكثير من أبناء المغرب الأندلس فَطَابَ لهم المقام فيها للدِّراسة والتَّدريس والاشتغال، والعكس يحدث حيث وَفَدَ عددٌ هائلٌ من الأندلسيِّين على المدن المغربيَّة فاستقرّوا بها، وصاروا من العلماء الّذين كان لهم الأثر الطيِّب في النَّهضة العلميِّة عامّة، وكان الدَّرس النَّحويِّ في مقدِّمة فنون العربيَّة الّتي نالت حظَّها من العناية كما هو حاله في المشرق، حيث برزَ في هذه البلاد كِبار الأعلام الّذين اشتغلوا بالنَّحو جنبًا إلى جنب. وأذكر منهم القاضي عيَّاض (ت544هـ)، ابن هشام اللَّخمي (ت577هـ) السّهيلي (ت581هـ) ابن مضاء القرطبي (ت592هـ)، ابن خروف

(ت609هـ)، أبا عليّ الشّلوبين (ت645هـ) الدبّاج (ت646هـ)، ابن عصفور (ت669هـ) وابن أبي الرّبيع السّبتيّ (ت688هـ) والقائمة طويلة. فهذه الأسماء وغيرها دليلٌ على الإقبال الواسع لأهل القطرين على دراسةِ النّحو وتدريسه منذ عرفوه عن طريق جودي بن عثمان (ت198هـ) الّذي يعدُّ أوّل نُحاة الأندلس الّذين قصدوا المشرقَ فحلَّ بالكوفة أين دَرسَ النّحوَ على الكسائي وتلميذه الفرّاء (ت207هـ)، وعند إيّابه جلَبَ معه كتاب الكسائي (مختصر في النّحو) فَأكبَّ على تدريسه ببلده ومنه دخل المغرب، وبقيَ النّحو الكوفيّ مسيطرًا لوقتٍ طويلٍ إلى أنْ جاء محمّد بن موسى بن هاشم المعروف بالأُفشنيق (ت307هـ) مُدخل النّحو البصريِّ إلى الأندلس من خلال كتاب سيبويه (ت180هـ) الّذي قَرَأَهُ على ابن جعفر الدّينوري (ت289هـ) فانتسخَ منه نُسخةً وأخذها معه، ومن حينها بدأ الأندلسيّون يهتمّون بالكتاب دراسةً وتدريسًا وشرحًا.

ووقع اختياري في هذه الدِّراسة على ابن أبي الرَّبيع الإشبيلي السَّبتيِّ الّذي كان أحد أهمّ النُّحاة الأندلسيِّين الّذين ساهموا بجهودهم في تنمية الدَّرس النَّحويِّ وإثرائه بالمغرب والاندلس، وقد نَالَ شهرةً واسعة بين أقرانه العلماء فكان الطّلبة يقصدونه من كلِّ ناحية.

1- **مولده، نسبه، نشأته ووفاته:** هو عبد الله بن أحمد بن عبيد الله بن محمّد بن عبيد الله بن أبي الرّبيع القرشي الأمويّ العثماني الإشبيليّ السَّبتيّ، وهو من أصول عربيَّة، انتقلت أسرته إلى قرطبة ثمّ إلى إشبيليّة الّتي وُلِد بها سنة 599هـ نَشَأَ وتعلَّم على أيدي شيوخها الكِبار، وبعد أنْ بَدَتْ عليه معالم التّميّز والنّبوغ وهو في سنّ صغيرة كلّفه أبو عليّ الشّلوبين أحد شيوخه الكِبار بتدريس الطّلبة المبتدئين بالجامع الأعظم في إشبيلية وحتّى بعد وفاة شيخه الشّلوبين خلفه في مهمّة تدريس النّحو بالجامع ذاته. ولكن لم يدمْ له مقامٌ في إشبيلية بل اضطرّ للمغادرة بسبب ما آل إليه مصيرُها على أيدي النّصارى فقَصَدَ المغرب الأقصى، وكان من حُسن حظِّ

مدينة سبتة أنْ ينزل بها ويقضي فيها بقيّة عمره، منكبًّا على التّأليف وتدريس اللّغة والنّحو لتضلّعه فيهما فانتفع بعلمه جمع من الطّلبة، حتَّى إنَّه حظِيَ بعناية من وُلاتها وأهلها "نال حظوةً خاصّة عند هذا الأمير (يقصد أبا القاسم العزفي) وبنيه وعاش في كنفهم مكفي المؤونة متفرّغًا للتّدريس والتّأليف"[1]، ولم يتوقّف هذا العالم البارع عن العطاء تدريسًا وتأليفًا إلى أنْ أدركه الأجل في السَّادس عشر من شهر صفر سنة 688هـ، وتمّ دفنُه في المقبرة الكبرى بسفح جبل الميناء[2]، وقد تأسَّف عليه خاصّة النَّاس وعامّتهم كثيرًا لعلمه الوفير الّذي انتفعوا به كثيرًا في المغرب والأندلس.

أوْلى ابن أبي الرّبيع السّبتي كلَّ اهتمامه للدّراسة وإقراء المبتدئين بمسقط رأسِه إشبيلية في سنٍّ مبكِّرة، فقد أذِن له شيخه الشَّلّوبين أنْ يتصدَّر لإشغاله ولذلك كان يُرسِل إليه الطّلبة الصّغار[3]، واستمرّ في ذلك حتَّى بعد تنقّله إلى مدينة سبتة حيث انقطع فيها للتّدريس والتّأليف أيضًا، وعلى هذا نجد أنّ ابن أبي الرّبيع "مثالٌ نموذجيّ للوحدة العلميَّة بين العدوتين، لقد قضى النّصف الأوّل من حياته في مسقط رأسه إشبيلية، وبعد سقوطها عـــام (646هـــ) انتقل إلى سبتة فقضى فيها بقيّة عمره، وبها توفي"[4] فقد مَثَّل هذا النَّحويِّ وحدة بلاد المغرب والأندلس أحسن تمثيل من الجانب العلميِّ، حيث قضى شطرًا من حياته في الأندلس طالبًا ومدرِّسًا وهو غلام يافع، والشَّطر الثَّاني منها في بلاد المغرب مُنْشَغِلاً بالتّدريس والتّأليف حتَّى بَلَغَ فيهما شأوًا عظيمًا إلى حين وفاته، وهناك مِن مترجميه الّذين قالوا بأنَّه استمرّ في طلب العلم بسبتة ففيها قرَأ على إمامها أبي علي العبّاس العَزَفي (ت633هـــ)[5].

وأيًّا ما كان الأمر، فقد كانت سبتة بالنِّسبة إلى هذا النَّحويِّ موطن الطّلب والعطاء وهو بذلك لم يشتهر في إشبيلية كثيرًا إلاَّ بعد تنقّله إلى هذه المدينة الّتي ألقى فيها "عصا التسيار، وظلّ منكبًّا على التعلّم، منقبِضًا عن النّاس"[6]، وعلى هذا تبقى هذه المدينة محطّة الشُّهرة العريضة الّتي بلغها في علوم كثيرة. ولهذا السّبب كان يُعدُّ

من كِبار الشّيوخ الّذين ساهموا في تقدُّم الدِّراسات اللّغويَّة والنَّحويَّة وازدهارها، فهو إنْ كان إشبيليّ المولد والنَّشأة فإنّه سبتيّ الاشتغال، وبالتّالي لو لا جهوده بسبتة ونشاطه الكثيف فيها لمّا كانت هذه الدِّراسات لِتعرِف كلَّ ذلك التقدّم والازدهار في زمانه فقد كان ممّن ترك أثرًا فيها وأغناها أيّما إغناء، حيث انتصب للتّدريس والتّأليف منذ قدومه إلى سبتة، علاوة على أنَّه في الوقت الّذي قصدَها كانت مرحلة تحصيله العلميِّ قد اكتملت، ولذلك انكبَّ على العطاء فارتوى من علمه الغزير أبناء المغرب.

2- شيوخه وتلامذته: من المؤكَّد أنَّ ابن أبي الرَّبيع السَّبتيِّ أخَذَ العلمَ عن شيوخ بلده، ولكن لم يكونوا بالعدد الكثير؛ لأنّه لم يكن ممّن تنقّلوا إلى المشرق للقاء المشايخ والأخذ عنهم، ولكن بالرّغم من قلّتهم إلاَّ أنَّ له أكثر من شيخ واحد، فقد بلغ عددهم على حدِّ قول تلميذه ابن الشاط (ت723هـ) في برنامجه اثني عشر شيخاً[7] ويُمكن الإشارة إلى البعض منهم في الآتي[8]:

- أبو العبّاس أحمد بن محمّد العَزَفي أحد علماء سبتة المشهورين ورجال السيّاسة المذكورين في زمانه، قرَأ عليه ابن أبي الرّبيع الفقه وأصوله، كما رَوَى عنه صحيح مسلم وسنن التّرمذي، وسيرة ابن هشام والشّفا ومقامات الحريري وغيرها.

- محمّد بن عبد الله القرطبي (ت628هـ) الّذي لزمه النّحويّ، وقد أجاز له كلَّ ما رواه عن المشايخ الّذين قَرَأَ عليهم، وأخذ عنه كتاب الموطأ وبعض مصنّفاته في التّفسير.

- أبو الحسن علي بن جابر الملقَّب بالدبّاج الّذي دَرَس عليه النَّحوَ من خلال كتاب سيبويه.

- أبو علي الشَّلوبين علم من أعلام الأندلس، تتلمذَ عليه عدد لا يُحصى من الطّلبة، وكان بينهم ابن أبي الرّبيع الّذي سانده في كثير من آرائه النَّحويَّة، قَرأَ عليه

كتاب سيبويه، وكذلك الإيضاح والجزوليّة وبعض المفصّل للزمخشري (ت538هـ).

– أبو عمرو محمّد بن أحمد بن هارون التميميّ الإشبيليّ (ت647هـ) تلا عليه القرآن الكريم بالقراءات السَّبع، وقرأ عليه مؤلّفات عدَّة، منها الجُمل والإيضاح والفصيح وأدب الكاتب وإصلاح المنطق والحماسة الأعلميّة وإلى غير ذلك.

وإذا كان هذا النَّحويّ من أبرز العلماء بسبتة الّتي ازدانت في عصره بأنبهم وأنجبهم، وأكثرهم تمكّنًا في النَّحو واللّغة، فإنَّ لذلك أثرًا في طلبة العلم الّذين تسابقوا للأخذ عنه والتشرُّف بلقائه والانتساب إليه "تكاثر عدد الآخذين عن أبي الحسين بن أبي الرّبيع من الأندلسيِّين والمغاربة خاصّة في مادّة النَّحو والأمّهات الّتي شَرَحَها"[9]، حيث بلغ عددهم ما يزيد على ثمانية وثلاثين تلميذًا كما عدّهم الثبيتي محقِّق كتابه (البسيط في شرح الجُمل للزَجَّاجي)، ودرسوا عليه مؤلّفات مهمَّة في النَّحو واللّغة والفقه وغير ذلك. وفي الآتي ذِكْرٌ لأبرز تلامذته:

– أحمد بن إبراهيم بن محمد الزبير الثّقفي الأندلسيّ (ت708هـ) صاحب التآليف القيِّمة[10]، دَرَسَ على جماعة من عِلِيَّة الشّيوخ، وكان بينهم ابن أبي الرّبيع الّذي أخذَ عنه العلوم اللّغويّة والدّينيّة.

– أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عيسى الغافقي الإشبيلي (ت710هـ أو ت716هـ) أندلسيّ الأصل والمولد ثمّ سبتيّ النّشأة والاشتغال والوفاة، صار من جلّة النّحاة بمدينة سبتة الّتي تنقّل إليها مع عائلته في سنّ الخامسة، تتلمذَ على كِبار شيوخها.

– أبو عبد الله بن رشيد الفهري السّبتي (ت721هـ) صاحب الرّحلة الشّهيرة أَخَذَ عن شيخه ابن أبي الرَّبيع الكثير من النَّحو واللّغة، وقد تحدّث عن الصّدى الكبير الّذي لقِيَه شيخه في المشرق[11]، حيث كان علمه محطّ اهتمام العلماء والطّلبة.

– أبو القاسم بن الشّاط الأنصاريّ السّبتيّ أحد تلاميذ ابن أبي الرّبيع النّجباء، له تآليف حسنة أبرزها (الإشراف على الشّرف) و(أنوار البروق في تعقُّب مسائل القواعد والفروق) و(تحرير الجواب في توفير الثواب)، كما له الفهرسة الشَّهيرة[12] الّتي حرّرها لِشيخه، نقل فيها الكثير عن جوانب حياته العلميَّة.

– عبد المهيمن الحضرميّ السّبتي (ت749هـ) الّذي تقدّم في النَّحو كثيرًا، مع ميلٍ واضحٍ إلى نظم الشِّعر والأدب، دَاوَمَ على قراءة (كتاب) من شيخه. وظَلَّ يُدرِّس الطّلبةَ بسبتة ويُصنِّفُ في النَّحو حتَّى صار من جلَّة شيوخها الّذين نشطوا في الدَّرس النَّحويِّ واللّغويِّ.

وإنْ دلَّ هذا على شيء فإنَّه يدلُّ على أنَّ ابن أبي الرَّبيع قدَّم الكثير للدَّرس النَّحويِّ ببلاد المغرب والأندلس، ولا سيما بمدينة سبتة الّتي كان فيها عميد هذا الحقل تدريسًا وتأليفًا.

3– **ثقافته ومؤلّفاته:** تميَّز ابن أبي الرّبيع السَّبتيِّ بثقافة متنوِّعة لتنوُّع العلوم الّتي تلقَّاها، فقد استطاع أنْ يجمَعَ بين العلوم العقليّة والنّقليَّة، ويتقدَّم فيها كثيرًا حيث كان ذا ثقافة مُتنوّعة متينة على نمط ثقافة عصره الّتي تتميّز بالمُشاركة في مختلف العلوم، ولكن ما صنَّفه من كتب يدلُّ على تضلّعه في علم النَّحو[13]، فهو فقيهٌ، وأصوليٌّ، ومحدثٌ ومفسِّرٌ، ومقرئٌ، وأديبٌ ولغويٌّ ونحويٌّ لامعٌ صار قدوة النُّحاة في عصره وحظِيَ بعناية العلماء في المغرب والمشرق. فقد شاعَ ذكره بالرّغم من أنّه لم يكن ممّن اشتهروا بالتنقّل، إذْ لم تُعرف له رحلة إلى المشرق ولا التنقّل بين المُدن المغربيّة الأخرى كما صنع كثير من معاصريه وتلامذته[14] لأخذ العلم وطلبه من مظانه ومصادره، ولكن يكفيه فخرًا أنَّه عاش في بيئة حافلة بالعلم وأهله وبالأخصّ مدينة سبتة، حيث حظِيَ فيها العلماء والطَّلبة بِمنزلة سامية عند الحكّام الّذين كانوا يُقيمون لهم وزنًا ويُشجِّعونهم على التّأليف والتّدريس بِفَتح المدارس وإغداقهم بالأموال والهدايا، وكانت العناية باللّغة والنَّحو واضحة جدًّا إلى

جانب العلوم العربيّة والإسلاميّة الأخرى. وعلى هذا فإنَّ الدَّرجة العلميَّة الّتي بلَغها هذا النَّحويّ كانت نتيجة اطّلاعه على أشهر المؤلّفات، وبالأخصّ تلك المتون النَّحويَّة واللّغويّة الّتي قرأها على شيوخه "أخذت كتب النَّحو واللّغة والأدب نصيبَ الأسد من قراءاته على أشياخه، فقد قرأ عليهم – كما جاء في برنامجه– سبعة عشر كتابًا في ذلك هي: كتاب سيبويه، والجُمل للزَجَّاجي والإيضاح لأبي علي الفارسي، والمفصَّل للزمخشري، والكرّاسة للجُزولي، والكامل للمبرّد، وإصلاح المنطق لابن السكيت، والفصيح لثعلب والأمثال لأبي عبيد وأدب الكتاب لابن قتيبة والأمالي لأبي علي القالي، والمقامات للحريري والحماسة، وشرح أشعار الستّة للجاهليّين للأعلم، وشعر أبي تمّام، وشعر أبي الطيّب، وسقط الزند للمعري. وبعض هذه الكتب قرأه أكثر من مرّة، وعلى أكثر من شيخ. ولم تقف قراءاته عند هذه الكُتُب بل قرأ غيرها كثيرًا، فقد صرّح في كتابه (البسيط) بالنّقل عن التّذكرة والبغداديّات، والأغفال لأبي علي الفارسيّ وكتاب القد لابن جنّي، والأفعال لابن القوطيّة، والحلل لابن السيد، والتوطئة لأبي علي الشَّلوبين"[15]، فقد أُتيحت له فرصة الاطّلاع على ما تقدّم من مُصنّفات قيِّمةٍ في النَّحو واللّغة والأدب عن طريق شيوخه، ممّا جعل منه شخصيّة لامعة صُنّفت في قائمة أساطين النَّحو واللّغة في بلاد المغرب والأندلس. وترك النّحويّ مؤلّفات متنوّعة ذات قيمة في العلوم اللّغويَّة والنَّحويَّة، تشهد له بالرّيادة فتكفيه شهادة السّيوطي (ت911هـ) الّتي أشادت بإمامته في النَّحو قائلاً "إمام أهل النَّحو في زمانه... وقرأ النَّحوَ على الدبّاج والشَّلوبين، وأذن له أنْ يتصدّرَ لإشغاله... ولم يكنْ في طلبة الشَّلوبين أنجب منه"[16]. ومن مؤلّفاته الّتي ذكرتها كتب التّراجم والطّبقات:

– الكافي في الإفصاح عن مسائل الإيضاح وهو شرح على إيضاح الفارسي (ت377هـ)، وقد ذكره التّجيبي في برنامجه باسم (الكافي في الإفصاح عن نكت كتاب الإيضاح)[17]، وتوجد نُسخة من مخطوطه بمكتبة جامع القرويّين بفاس.

– البسيط في شرح جُمل الزَجَّاجي (ت337هـ) الّذي جَمَعَ فيه مختلف الشُّروح الّتي وضعها على كتاب (الجمل) والبسيط أوّل مؤلّفاته، ومع ذلك كان أقلّها شهرةً وانتشارًا، وتوجد نُسخة من الجزء الأوّل له في مكتبة الخزانة العامّة بالرّباط برقم 206 ق[18]، ويحتوي هذا الجزء على ستّة وعشرين بابًا، تناول في الباب الأوّل منه أقسام الكلام، وفي الباب الأخير الصّفة المُشبّهة باسم الفاعل[19]، والتزم في هذا الكتاب بنفس ترتيب الجُمل، حيث تعرّض لجميع أبوابه دون زيادة أو نقص أو تأخير، وتناول كلَّ باب على حدة، وكان يورد النّصوص أوّلاً ثمّ يشرحها ويُوضّحها، علاوة على أنَّه كان يُكمّلُ قولَ الزَجَّاجي النّاقص في بعض الأبواب تحت عنوان (مسألة)، مع الإشارة إلى عدم موافقة بعض النُّحاة الزَجَّاجي على تسميته للأبواب، وكان نحويُّنا يُعلِّق بالحجَّة والدَّليل على رأي الزَجَّاجي، كما كان يُصحِّح مذهبَه ويُدافع عنه ضدّ اعتراضات النُّحاة الآخرين عليه. هذا وقام بِشرح ألفاظ الجُمل وإعرابها مع الإشارة إلى اختلاف نُسخ الكتاب[20]، فحاصل القول ابن أبي الرّبيع كان أكثر توسّعًا في الأبواب، وأكثر بسطًا لمسائل نحويَّة عديدة.

– الشَّرح الأوسط على كتاب الجُمل وقد ذكره التجيبي في برنامجه قائلاً "الشَّرح الأوسط على كتاب الجُمل من إملاء شيخنا العلاّمة أبي الحسين بن أبي الرّبيع"[21]؛

– القوانين النَّحويَّة[22]، وهناك من يذكره باسم "الملخّص في ضبط قوانين العربيّة" لاختلاف نُسخه وتوجد نُسخة منه مثلاً بالخزانة العامّة في الرّباط باسم القوانين، ونُسخة أخرى بالعنوان الثَّاني في إحدى مكتبات إسبانيا.

– تقييد على كتاب سيبويه وهو مفقود؛

– كان ماذا؟ مفقود أيضًا، صنّفه ابن أبي الرّبيع لِتخطئة مالك ابن المرحّل المصمودي السّبتيّ (ت699هـ) في هذا التّركيب، وأثار هذا خصامًا خاصًّا بينهما

ممّا جعل كلَّ واحد منهما يُؤلِّفُ كتابًا فابن أبي الرّبيع قدّمه بِهذا الاسم (كان ماذا؟) وابن المرحّل سمّى كتابه بـــ (الرمي بالحصى والضّرب بالعصا).

– تفسير القرآن الكريم وهو آخر مؤلّفاته كما أشار التجيبي في برنامجه، تغلّب عليه الطَّابعُ النَّحويّ "عُنِيَ ابن أبي الرّبيع في تفسيره بذكر القواعد النَّحويَّة والآراء المختلفة المتّصلة باللّفظ القُرآنيِّ الّذي هو بصدد إعرابه، فتفسيره كتابُ نَحْو وموضوعه اللّفظ"[23]، فقد استطاع أنْ يجمعَ في هذا الكتاب بين النَّحو والتّفسير.

وإذا جاءت بعض كتب النَّحو المغربيّة والأندلسيّة موجزةً في غاية الإيجازِ كالمقدّمة الجزوليّة لأبي موسى الجزولي (ت607هـــ) الّتي انتقدها الكثير لغلوّ صاحبها في اختصارها، فما لوحِظ في مؤلّفات ابن أبي الرّبيع هو العكس، فهي تبدو في مجملها ضخمة الحجم، بلغ بعضُها عشرة أجزاء كـــ (البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي)، والبعض الآخر يزيد على ثلاثين جزءًا مثل (تفسير القرآن الكريم)[24] ولهذا السّبب جاء أسلوب مؤلّفاته واضحًا إذْ "لا تعقيد ولا غموض ولا سجع ولا تورية – في غير المقدّمة– ولا يحتاج إلى شرح أو تعليق أو رجوع إلى مصادر أخرى. بل إنَّ أسلوبَه وهو يكتب أسلوب من يتكلّم ويُخاطب الطَّلبة ويُحاورهم ليرفع عن أذهانهم كلَّ لُبسٍ"[25]، فهذا النَّوع من الأسلوب يكون سهل التّناول، لا يجد الطّلبة صعوبةً في فهم القواعد الّتي تناولها في كُتُبه وإدراكها بحيث يُعرَضُ فيها المتنُ بشكلٍ متناسقٍ ومفصَّلٍ، أضف إلى كثرة الاستشهاد والتَّمثيل لتوضيح القواعد وتأييد آرائه وأحكامه النَّحويَّة. وربّما لهذا السّبب انتشرت مؤلّفاته وبخاصّة (القوانين) "فلقِيت قبولاً لدى العلماء وظلّت محلّ عنايتهم بعد وفاته زمنًا طويلاً، فكتابه (القوانين النّحويّة) من الكُتُب الّتي اعتنى بإقرائها العلماء إلى عصور متأخِّرة"[26]. مع العلم أنَّ هذا النَّحويِّ لم يكن مُكتفيًا بذكر آرائه وآراء غيره فقط، بل كان يُناقش ويُبرّر، ويحتجُّ بأمثلة وشواهد مُستنبطة من هذا المؤلَّف وذاك.

ولوحِظ في هذه المؤلّفات أيضًا، مُباشرة ابن أبي الرّبيع في عرض الموضوعات دون تمهيدات فهو قليلاً ما يستهلّ كُتُبه بمقدّمة، ففي كتابه (القوانين النَّحويّة) مثلاً لم يضع له المقدّمة، حيث تحدّث مباشرة عن الموضوع بعد البسملة اقتداءً بالكتاب العزيز وامتثالاً لِقول الرّسول ﷺ ثمّ الصّلاة عليه، وقد اتّبع نحويُّنا الطّريقة ذاتها الّتي اعتمدها سيبويه في كتابه، وقيل بخصوص هذا إنّ موضوعات (القوانين النَّحويَّة) تتّحد أو تتقارب في بدايتها مع موضوعات هذا الأخير، ولكن ما لم يتفّق فيه الكتابان هو أنّ في عبارات هذا النَّحويِّ من الشَّرح وحسن السّبك والاستشهاد بخلاف عبارات سيبويه في كتابه، والأمر كذلك بالنّسبة لكتاب (تفسير القرآن الكريم) الّذي لم يتوفّر على مقدِّمة، فقد بدأ في (إعراب بسم الله الرّحمن الرّحيم وسورة الفاتحة) دون تقديم، وأنهى الجزء الأوّل من هذا التّفسير بالآية 128 من سورة البقرة[27]، وكان الكتاب في غاية الأهميَّة والإفادة.

ولاشكَّ أنَّ سِعة اطّلاع ابن أبي الرّبيع أسهمت في تنوّع مصادره، فقد حظِيَ بفرصة قراءة أمّهات الكُتُب عن شيوخه الأجلاء وبِخاصّة إذا علمنا أنّه لم تكن له رحلة إلى المشرق، ويأتي في طليعة النُّحاة الّذين تابع أراءهم في مُصنّفاته، سيبويه الّذي اجتهد في فهم كتابه وتفهيمه، ويأتي في الدّرجة الثّانية في النّقل الفارسيّ الّذي لقِيَ من اهتمامه الشَّيء الكثير أيضًا، ومع أنّه مرّات يُصرّح باسمه ومرّات أخرى العكس، ثمّ يليهما الأخفش (ت215هـ) الّذي تردَّد اسمُه كثيرًا في كتاب (البسيط) ولكن دون أنْ يُصرّح باسم كتابه، وكذلك المبرّد (ت286هـ) الّذي نَقَلَ عنه في مواطن عديدة مع مناقشة أكثر آرائه وَرَدِّ ما ذهب إليه. هذا ولا يُنسى أنّ هناك من نُحاة الأندلس الّذين كانوا مصدرًا مهمًّا لابن أبي الرّبيع أيضًا، وأشهرهم الشَّلوبين الّذي بلغ منزلة خاصَّة عنده[28]، فقد كان له الفضلُ في ما بلغه من معرفة وتقدّم في النَّحو العربيِّ منذ مراحل حياته الأولى، وأمّا من النُّحاة المغاربة الّذين ذكرهم ابن أبي الرَّبيع فنجد الجزولي الّذي حَظِيَ بالذِّكر في كتاب (التّفسير)[29]، وكذلك

(البسيط) الّذي كان يُشير إلى آرائه باسم (صاحب الكرّاسة)[30]. ويُفهم من هذا كلِّه أنّ الثّقافة المُتنوّعة الّتي اكتسبها ابن أبي الرّبيع كانت عن طريق ملازمته للشّيوخ وعلى رأسهم الشّلوبين كما تقدَّم في الذِّكر، وقراءته لمصادر كثيرة في شتى العلوم ولا سيما مُصنّفات اللّغة والنَّحو، حيث أفاد كثيرًا من بحوث سيبويه والفارسي والمبرّد والشّلوبين وغيرهم، حتَّى عُدَّ من كِبار العلماء الّذين جعلوا مدينة سبتة تتميّز بنشاطها النَّحويِّ واللّغويِّ منذ استقراره بها. كما أنَّ تنوّعَ مصادره يدلّ على سعة الاطلاع، حتَّى بَرَزَ اسمُه بين جلّة العلماء ليس في النَّحو واللّغة فقط، بل في علوم أخرى أيضًا بَرَعَ فيها من قراءات وفقه وحديث وتفسير، فكان له من المؤلّفات الّتي تردّد صداها في زمانه وبعد وفاته، وأقبل النّاس عليها كإقبالهم على جُمل الزَجَّاجي في المغرب والمشرق واعتنوا بِشرحها وتدريسها إلى وقت متأخِّر وخَيْرُ شَاهِدٍ على ذلك قول بهاء الدّين بن النّحاس (ت698هـ) بالمشرق الّذي قدَّر جودةَ كتابه (الإيضاح) وانتفاعه به بترديد هذه العبارة "سيّدنا... ذاك شيخنا إفادة"[31]، ولا يُنسى شرحُ تلميذه إبراهيم الغافقي الّذي جاء على الجُمل كتلخيص لِشرحه (البسيط)، وابن الفخّار الخولاني الألبيري الّذي كان شرحه أكمل من شرح شيخه الغافقي، ممّا يعني أنَّ ابن الفخّار أفاد كثيرًا من (البسيط) وردَّدَ اسمه في عدّة مواضع، علاوة على أنَّه كان كثير الميل إليه مقارنة بابن عصفور الّذي ذكره في شرحه أيضًا[32]. وأذكر إلى جانب هؤلاء، الأشموني الّذي ذكره في شرحه على ألفية ابن مالك (ت672هـ) بحوالي ستّ مرّات[33]. وكذلك المُرادي (ت749هـ) الّذي كان من النُّحاة الّذين ذكروا آراء ابن أبي الرّبيع في مؤلّفاته، ومنها كتاب (الجني الدّاني في حروف المعاني) الّذي نقل عنه في مواضع مختلفة تنحصر في كلّ من باب مذ ما، لات، لكن ولو لا، ومثال ذلك قول صاحب المؤلَّف في مسألة (لات) "وقال ابن أبي الرّبيع (لات) أصلها (ليس). فقُلّبت ياؤُها ألِفًا، وأُبدِلت سيّها تاءً، كراهة أنْ تلتبسَ بحرف التمنّي"[34]، وكذلك الأمر في توضيح المقاصد

والمسالك بِشرح ألفية ابن مالك الّذي رَدَّدَ اسمَه فيه حوالي ثماني مرّات، فقد أشار إلى رأيه مثلاً في باب لات، باب العطف وغيرهما. كما تكرّر اسمُ ابن أبي الرّبيع في كتابي (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع) و(الأشباه والنّظائر) للسيّوطي ومن الأمثلة على ذلك قوله في باب ظنّ وأخواتها "وَذَهَبَ ابن أبي الرّبيع: إِلَى أَنَّ (ضرب) بِمَعْنى: صيَّر مُتَعَدٍّ لاثْنَيْنِ مُطلقًا مَعَ المثَل وغيره نَحو ضَرَبْتُ الفِضَّة خلخالا. وَمَال إِلَيْهِ أبو حيَّان"[35] وللإشارة كان السيوطي تارةً موافقًا لِما ذهب إليه وتارة ثانية مخالفًا، وثالثة مكتفِيًا بعرض حكمه النَّحويِّ كما في المسألة المذكورة. وأعتبر متابعة أبي حيّان الأندلسيّ (ت745هـ) للسَّبتيِّ دليلاً على أنَّ لآرائه واختياراته وتوجّهاته النَّحويَّة أثرًا كبيرًا في المعاصرين له والخالفين من بعده وسوى هؤلاء كثير.

4- **آراء ابن أبي الرّبيع السّبتي ومذهبه النَّحويّ:** إنَّ أغلب الدِّراسات الّتي اهتمّت بآراء ابن أبي الرّبيع أو تحدّثت عنه في معرض تناولها له كأحد أئمّة النَّحو في الغرب الإسلاميِّ، تُصنّفُه بين العلماء الّذين تأثّروا بالمذهب البصريِّ، وأَكَّدَ على هذا محقّقُ كتابه (البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي) بالقول إنَّه "بصريُّ الاتّجاه إلى أبعد الحدود، ويتجلّى ذلك واضحًا في موقفه من مسائل الخلاف بين المدرستين البصريّة والكوفيّة، فما ذكر مذهب البصريِّين والكوفيِّين في مسألة من مسائل الخلاف إلاَّ أخذ بِرأيِ البصريّين"[36]، حتَّى إنَّه في بعض المواضع كان يُساند رأيَ البصريِّين وفي الوقت نفسه يردّ على الكوفيِّين، وفي مواضع أخرى كان يذكر آراء البصريّين دون الإشارة إلى ما يُخالفها من الآراء الكوفيّة، وللعلم لم يكن يُشيرُ إلى آرائهم فحسب، وإنّما كثيرًا ما كان يقوم بِشرحها وتوضيحها. ومن الآراء الّتي تابعَ فيها البصريِّين بِمن فيهم سيبويه أذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- اختار ابن أبي الرّبيع رأيَ سيبويه في أنَّ (ما) المصدريَّة حرف بحيث لا يعود عليها ضمير من صلتها، خلافًا للأخفش وابن السرّاج (ت316هـ) وجماعة

من الكوفيِّين الّذين ذهبوا إلى أنَّها اسم ولذلك تفتقر إلى ضمير، فإذا قلت: يُعجبُني ما صنعت فتقديره عند سيبويه: يُعجبُني صُنعك وأمّا الأخفش فكان يقول: الصّنع الّذي صنعته. و(ما) المصدريّة قسمان، الظّرفيّة وهي الّتي تُقدَّرُ بِمصدر نائب عن ظرف الزّمان، وغير الظرفيّة وهي الّتي تُقدَّر مع صلتِها بِمصدر ولا يحسن تقدير الوقت قبلها. ونُحاة آخرون قالوا إنَّ (ما) زائدة كابن الطراوة (ت528هـ) ولها أربعة أقسام، فالأوّل أنْ تكونَ زائدة لِمجرّد التّوكيد، والثّاني أنْ تكون كافّة، وهي تقع بعد (إنَّ) وأخواتها، وبعد (رُبَّ) وكاف التَّشبيه في الأكثر، والقسم الثّالث أنْ تكون عوضًا وهي ضربان عوض من فعل وعوض من الإضافة، وأمّا الرّابع فأنْ تكون (ما) مَنْبَهةً على وصفٍ لائقٍ كالتّعظيم والتَّحقير وغير ذلك، كما هناك أقسام أخرى ذكرها المُرادي[37]. ولابن أبي الرّبيع رأيٌ في هذه المسألة وهو أنَّ ما مصدريّة، لا تُستعمل وحدها فقط، إذْ لابدَّ أنْ تقترن بِغيرها فتقول: لا أُكلّمك ما دام زيد جالسًا، فـ (ما) مع الفعل في تأويل المصدر الّذي يكون في موضع الظَّرف تقديره: لا أُكلّمُكَ مدّة دوام زيد جالسًا[38]، بِمعنى أنّ (ما) حرفيّة لا دلالة لها إلاّ باقترانها مع غيرها، ورأى هذا الرّأي أيضًا من النّحاة الأندلسيّين ابن خروف الّذي قال بِدوره إنَّ (ما) المصدريّة حرفٌ والصَّواب هو الخلاف فيها[39]، بدليل رأي الأخفش المذكور أعلاه والمُخالف لأنَّه صرَّح باسميتها.

– ذهب ابن أبي الرَّبيع مذهب البصريِّين إلى أنَّ (بسم الله) يُعربُ خبرًا لِمبتدأ محذوف، خلافًا للكوفيّين الّذين قالوا بوجود الفعل المقدّر (أبدأ) ولذلك يُعرب (بسم) جار ومجرور الباء حرف جر واسم مجرور بالباء وعلامة جرّه كسر آخره متعلّق بفعل محذوف وجوبًا، واحتّجوا بأنَّ الجاري مجرى المثل يُحذف متعلّقُه وجوبًا وهو مضاف ولفظ الجلالة مضاف إليه و(الرّحمن الرّحيم) صفتان (لله) والصّفة تتبع الموصوف في الإعراب وهو جرّ آخرهما بالكسر كما يجوز أنْ يُعربَ (الرّحمن) بدلاً و(الرّحيم) نعتًا. وأمّا السبتيّ فقد رَدَّ عليهم بالقول إنَّ الفعلَ الّذي لا يصلُ إلاّ

بحرف الجرّ يضعُف حذفه[40]، ويبدو أنَّ هذا النَّحويِّ لم يكتفِ بموافقة البصريّين فحسب، بل علَّلَ في هذه المسألة قائلاً إنَّ وصلَ الفعل بحرف الجرّ يضعفُ حذفه.

– اختلف النّحاة في مسألة تنكير التّمييز وتعريفه، فهناك جمهور البصريّين الّذين اشترطوا تنكير التّمييز، وأمّا الكوفيّون وتبعهم ابن الطراوة فقد جوّزوا التَّعريفَ واستدلّوا على ذلك بقول الشّاعر:

رَأَيْتُك لمَّا أنْ عَرفْتَ وُجُوهَنا صدَدْتَ وطِبْتَ النّفسَ يَاقيسُ عَنْ عَمرو

ففي (طبتَ النّفسَ) اعتبروا (أل) الدّاخلة عليها معرفة وليست زائدة، وفي حين حَكَمَ البصريّون على ذلك أنَّه لِضرورة شعريَّة، وهو الرّأي المختار عند ابن أبي الرّبيع لقوله "والصَّحيح أنَّ التّمييزَ لا يكون إلاّ نكرة؛ لأنّ المقصود منه بيان ما انبهم من الذّوات. هذا يحصل من لفظ التّنكير فلا فائدة في التَّعريف"[41]، فبالنّسبة إليه لا يُفيد تعريفُ التّمييزَ ولذلك وَجَبَ تنكيرُه.

– تابعَ جمهور البصريِّين في الامتناع عن العطف على المُضمر المجرور دون إعادة الخافض، وذلك بقوله "فإنْ كان الأوّل مخفوضًا فلابدّ من إعادةِ الخافض، لِما ذكرته من الاتّصال فتقول: مَررتُ بِزيدٍ وبِكَ"[42]. واستدلّ البصريُّون على رأيهم بالقول إنَّ الجار مع الضَّمير المجرور بِمنزلة شيء واحد فإذا تمّ العطفُ من غير حرف جرٍّ فكأنَّه عطفٌ على جزء الكلمة أو عطف الاسم على الحرف وهذا غير جائز، بِخلاف الكوفيّين الّذين أجازوا العطفَ على هذا الضَّمير بلا شرط فقالوا: (مررتُ بِكَ وبِزيدٍ) وجرى عندهم مجرى: (مررتُ بِزيدٍ وعمروٍ)، ولكن ما ينبغي ذكره هنا هو أنَّ الكسائي والفرّاء موافقان للبصريّين في هذه المسألة فلعلّ ما نُسِب إلى مذهبهم هو رأيٌ لبعض المتأخِّرين، واستدلّوا على رأيهم بشواهد من التَّنزيل وكلام العرب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ

فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [النّساء: الآية 127]، فـ (ما) جاء موضع خفض لأنَّه عطف على الضَّمير المخفوض في (فيهنّ)[43]، وقول الشَّاعر:

فَاليوْمَ قرّبتَ تَهْجُونَا وَتَشْتِمُنَا فاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالأيَّام مِنْ عَجَبِ

والشَّاهد في البيت (والأيّام) جاء معطوفًا على الضَّمير المجرور في (بك) دون إعادة العامل فإذا اعتبر الكوفيّون عطفَه من غير إعادة لحرف الجرّ أمرًا جائزًا فهو عند البصريِّين شاذٌ ولا يجوز إلاَّ في الشِّعر لضرورة كمثل هذا الموضع. وأجد ابن أبي الرَّبيع متابعًا للبصريِّين في منع العطف بلا إعادة الخافض وفقًا للشَّواهد الّتي احتجّوا بها، ولا سيما الشّواهد القرآنيّة الّتي احتلّت أعلى مراتب السّماع عنده. ولكن حتَّى وإنْ ذهب هذا المذهب قومٌ من النّحاة إلاَّ أنَّ لرأي الكوفيِّين أتباعه لكثرة السَّماع به في التّنزيل وكلام العرب نثره وشعره بشكل خاصّ.

– وتابعهم كذلك في القول إنَّ (الميم) المشدّدة الّتي أُلْحِقت بِآخر لفظ الجلالة (اللّهم) عوض من حرف النّداء (يا) الّتي للتّنبيه؛ لأنّه لا يُمكن الجمعُ بينهما وحجّتهم في ذلك أنَّ العِوَضَ ما قام مقام المعوّض، وأمّا الفرّاء وممّن تبعه من النُّحاة الكوفيّين[44] فقد ذهبوا إلى أنَّ أصل الكلمة هو (يا الله) ثمّ حُذِف حرفُ النِّداء للتّخفيف بِسبب كثرة الاستعمال، وبالتّالي اعتبروا الميمَ زائدة في الاسم تعظيمًا لاسم الله تعالى، ولكن يلزم الحرف إذا نُودِيَ هذا الاسم العظيم (الله) بغير ميم مشدّدة.

ولكن بالرّغم من ميله المفرط إلى المذهب البصريِّ إلاّ أنّه تابع ولو قليلاً بعض آراء الكوفيِّين ومن أمثلة ذلك موافقته لهم في القول إنَّ (بلى) كلمة مركّبة من بل والألف، معتبرين الألفَ بدلاً من الجملة المحذوفة للجواب في مثل قول سبحانه: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ ﴾ [القيامة: الآية 4] فتقديره: (بلى نجمعُها قادرين) فحُذف (نجمعها) وجُعلت الألفُ عوضًا من ذلك[45]. والصّواب هو أنّ هذه الألف من أصل الكلمة، مع العلم أنَّ هناك من قال إنَّ أصل بلى هو بل، والألف زائدة فيها، أضف إلى أنَّ

البعض منهم جعلها للتّأنيث، فـ (بلى) "حرف ثلاثيُّ الوضع، والألف من أصلِ الكلمة، وليس أصلها بل، الّتي للعطف، فدخلت الألف للإيجاب أو للإضراب والردّ"[46]، يتبيّن من هذا التّعريف أنّ (بلى) حرف جواب و(بل) حرف عطف وهذا دليل على أنّهما يؤدّيان معان مختلفة.

هذا وأذكر أنّ لابن أبي الرّبيع السّبتيّ بعض التوجّهات والآراء النّحويَّة الّتي انفرد بها كغيره من النُّحاة المتأخّرين في الآتي:

– ذهب النّحويّ إلى القول إنّ لام المُستغاث في مثل (يا لزيد) لا تتعلّق بالفعل المحذوف (أنادي) لكونه متعدّيًا بنفسه، وهو برأيه هذا مُخالف للمبرّد الّذي اعتبر هذه اللام زائدة وعليه ابن خروف أيضًا واختاره أبو حيّان، ولابن جنّي الّذي قال إنّها متعلّقةٌ بحرف النّداء وليس بالفعل لِما في هذا الحرف من معنى الفعل ومُخالف أيضًا لابن عصفور وابن الضائع (ت680هـ) اللّذين نَسَبَا قولهما لسيبويه، حيث رأى أصحاب هذا المذهب أنّ تعدّي فعل الاستغاثة ضَعُفَ بوجوب الحذف ممّا قَوِيَ تعدّيه بهذه اللام[47]، وهو رأيُ جمهور النُّحاة أمثال ابن مالك واختاره ابن عصفور حيث أقرّوا في المسألة بِتَعَلُّق اللام بفعل النّداء المُضمر.

– ومن آرائه أيضًا، ذهب إلى القول إنَّه إذا اتّصلت (ليت) بـ (ما) الحرفيّة فذلك يُزيلها عن الاختصاص بالأسماء، وبالتّالي يجوز دخولها على الأفعال فيُقال (ليتما قام زيد)، ولكن ابن هشام الأنصاريّ (ت761هـ) خالفه في هذه المسألة قائلاً إنّ (ليت) لا يصحّ دخولها على الأفعال حتّى مع اتصالها بـ (ما) الحرفيّة فلا يُمكن القول (ليتما قام زيد)[48]، بِمعنى أنّ (ليت) باقية الاختصاص بالأسماء فلا تدخل على الأفعال حتّى مع (ما) خلافًا لأخواتها مثل (لعلّ وإنّ) كقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ ﴾ [الأنبياء: الآية 108]، واختار هذا الرّأي قبله الجزولي الّذي قال إنّ (ليت) باقية مع (ما) على اختصاصها بالأسماء ومن ثمّ يجوز إعمالها لبقاء

الاختصاص وإهمالها حملاً على أخواتها. كما هناك ابن مالك الّذي أجازَ الإعمال والإهمال في ليتما، ومع أنَّ قولَ الفرّاء أبطل دعوى الإجماع بينهما، فهو لم يُجِز كفَّ (ما) لليت وللعلّ بل أوجبَ إعمالَها فتقول: ليتما زيدًا قائمٌ، ولعلَّما بكرًا قادمٌ وهو مذهب سيبويه[49]، وتبعهما كثيرٌ من النّحاة المغاربة والأندلسيّين.

– قال النَّحويُّ ابن أبي الرّبيع إنَّ حرف النِّداء هو النَّاصب للمنادى، لِتضمّنه – الحرف– معنى الفعل المحذوف وجوبًا، والمنادى مفعول به منصوب بإضمار فعل تقديره (أُريدُ أو أنادي) الّذي يُعوّضه هذا الحرف[50]، وكان الفارسيّ قد أشار إلى هذا الرّأي قبله، وهو مُخالف لِجمهور النُّحاة وفي مقدّمتهم سيبويه الّذي رأى أنَّ النَّاصب له هو الفعل المُضمر (أنادي)[51] وليس الحرف الّذي نَابَ مَنابَه، كما اختار هذا الرّأي المبرّد الّذي صرّح بالقول إنَّ ناصبَ المنادى هو الفعل المحذوف وجوبًا وحرف النّداء بدلاً عنه لسدِّه مسدّ ذلك الفعل، ومع أنَّ ابن يعيش (ت643هـ) يُنسَبُ إليه الرّأيُ الأوّل وهو أنّ ناصب المُنادى حرف النّداء[52]، وهذا غير صحيح فبالنِّسبة للرّأي الأوّل يكون المنادى مفعولاً به للفعل المحذوف، وأمّا للرّأي الثّاني فالمنادى يأتي منصوبًا بـ (يا) كما أفاد نحويُّنا.

– ولابن أبي الرّبيع رأي عن (لكنْ) المخفّفة الّتي اختلف النُّحاة في كونها من حروف العطف، وفي عملها تبعًا لِما يليها من مفرد أو جملة، أو لاقترانها بالواو أو عدمه، وتبعًا لِمعنى الجملة قبلها ما بين نهي ونفي، فقد ذهب قومٌ منهم إلى أنَّها حرف ابتداء وليست حرف عطف إنْ وقعت قبل الجملة وتقدّم عليها الواو؛ لأنّ العاطف لا يدخل على حرف عطف آخر، كما هناك من اعتبرها حرف عطف وهو مذهب قومٍ من النُّحاة أمثال الفارسي، حيث تكون (لكنْ) عاطفة ولا تحتاج إلى الواو في مثل قولنا: ما قام زيدٌ لكنْ عمروٌ، وما ضربتُ زيدًا لكنْ عمرًا، وما مررتُ بِزيد لكنْ عمرو، وأمّا يونس بن حبيب فقد قال بأنّها غير عاطفة، بل هي حرف استدراك، والواو قبلها عاطفة لِمَا بعدها ويكون العطفُ عنده عطف مفرد

على مفرد، ولكن ابن كيسان (ت299هـ) خالفه بالقول إنَّ العطف بها وارد وتكون مُخيّرًا في الإتيان بالواو لأنّها زائدة وغير لازمة، ولابن عصفور رأيٌ منفردٌ في هذه المسألة، حيث جعل (لكن) عاطفة والواو قبلها زائدة، ومع ذلك لا تُستعمل (لكنْ) إلاّ بها أيْ إنَّها زائدةٌ ولازمةٌ في الوقت نفسه. أمّا بالنِّسبة لابن أبي الرَّبيع فاعتبرها حرفَ عطف، بحيث تعطف جملة على جملة أخرى حين اقترانها بالواو وهو ظاهر كلام سيبويه، مع وجوب اتّفاق الجملتين في المعنى، وإنْ ولِيَها مفردٌ فتكون هي العاطفة ولكن بشرطين، أحدهما أنْ لا تقترن بالواو وهذا قاله الفارسي وأكثر النُّحاة ولكن قال قومٌ إنَّها لا تُستعمل مع المفرد إلاَّ بالواو، والشَّرط الثّاني أنْ يتقدّمها نهي أو نفي مثل (ما قام زيدٌ لكنْ عمرو- لا يَقُم زيد لكنْ عمرو)[53]، وإذا فُقِد الشَّرطان فتكون حرف استدراك وابتداء كلام. ولكن يبدو أنّ هناك من النّحاة الّذي اعترضوا على رأيه هذا كابن هشام الأنصاري لمّا قال "زَعَمَ ابن أبي الرّبيع أنّها حين اقترانها بالواو عاطفة جملة على جملة وأنّه ظاهر قوله سيبويه..."[54]، فابن هشام لم يوافقه في ما ذهب إليه.

- انفرد ابن أبي الرّبيع بقوله إنَّ كلمة (عيونا) في قول الله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر: الآية 12] نصبٌ على البدل من الأرض، فإمّا حُذف الضّمير أيْ (عيونها) أو أُسقِط حرف الجرّ أيْ بالعيون وأصل الجملة (فجَّرنا عيونَ الأرض) وهو في ذلك مُخالف لشيخه الشَّلوبين الّذي قال إنَّ (عيونًا) في الآية نصب على الحال المقدّرة لا التَّمييز، ولم يثبُت إنْ كان التَّمييزُ منقولاً عن المفعول[55]، مع أنَّ أكثر النّحاة الأندلسيِّين والمغاربة ذهبوا إلى أنَّها تمييزٌ مُحوَّل عن مفعول لا حال أمثال ابن عصفور وابن مالك والجزولي وسِواهم.

- اختلف النُّحاة في مسألة تعدّد الخبر لفظًا ومعنًى لِمبتدأ واحد على مذاهب أحدها الجواز بتعدُّد الخبر، وقد يكون ذلك بأكثر من خبرين، في مثل قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: الآيات 14- 15- 16] والمذهب الثّاني منع هذا التعدّد لِجعلهم الأوّل خبرًا والباقي صفة للخبر، وأخذ هذا الرّأي ابن دُرُستويه (ت347هـ) من نُحاة المذهب البغدادي، ولكن هناك من النُّحاة الّذين اعتبروا الخبر الثّاني خبرًا لِمبتدأ مقدَّر، وابن أبي الرّبيع اختار الرّأيَ الثّاني وتبِعه ابن عصفور وكثير من الأندلسيّين والمغاربة[56]، ولكن يبدو أنَّ الرّأيَ الأوّل هو الأصح وعليه جمهور النّحاة حيث يجوز تعدّد الخبر كما في النّعوت سواء اقترن بعاطف أم لا.

وهذه إذًا جملة من آراء ابن أبي الرَّبيع الإشبيليَّ السَّبتيِّ وتوجّهاته واختياراته النَّحويَّة الّتي تميَّز بها بين النّحاة، وقد دلّت اجتهاداته على أنَّه لم يكن يكتفي بِعرض القواعد وإصدار الأحكام فقط، بل كان يُرجِّح ويُناقش ويُعلِّل ويعترض على الآراء الّتي لا تحتكم إلى الصَّواب بالنِّسبة إليه.

فالمهمّ في الأمر، أنَّ هذا العالم الفذّ كان في النَّحو بصريًّا إلى حدٍّ كبير، وذلك لأنّه كثير المتابعة لآرائهم وترجيحها، وبالأخصّ سيبويه الّذي نقلَ من آرائه الكثير مع موافقته فيها في غالب الأحيان، ولشدَّة تعلّقه بآرائه – سيبويه- فقد كان في مواضع عديدة يُفضِّل رأيَه على آراء النّحاة الآخرين كالمبرّد والأخفش وغيرهما حتّى إنَّه كثير الاحتجاج بِشواهده النَّثريَّة والشِّعريَّة. ولكن بالرَّغم من ميله إلى المذهب البصريِّ إلاَّ أنَّه تابع الكوفيِّين في مسائل قليلة وساندهم فيها، ثمّ البغداديِّين في مسائل أخرى وهي بِنسبة قليلة أيضًا، ومع أنَّ معظم هؤلاء – نُحاة البغداديّة- كانوا من أتباع النّحاة البصريِّين. وأمّا انتماؤه إلى المذهب المغربيِّ الأندلسيِّ فيبدو أوّلاً في تلك الآراء الّتي تابعَ فيها نُحاة هذا الأخير أو اعترضَ عليها كالجزولي والشَّلوبين، وثانيًا في الاجتهادات الّتي انفرد بها في بعض المسائل النَّحويَّة كما أَتَيْتُ على ذكرها. ولأنَّ استقرار هذا النّحويّ في سبتة أثمر ثماره، حيث كان فيها

أحد شيوخها الأجّلاء الّذين عَظُمَ بهم الانتفاع، وملأَ صيتُهم البقاع حتّى ارتبطت شهرة هذه المدينة في الدَّرس النَّحويِّ باسمه فضلاً عمّا قدَّمه من جهود تعليمًا وتأليفًا، بِدليل أنَّه لم يشتهر في موطنه إشبيلية كاشتهاره فيها، حيث انشغَلَ العمر كلّه بِتدريس أشهر كتب النَّحو المشرقيّة وتوضيحها وأخصُّ بالذِّكر كتاب سيبويه الّذي وضعَ تقييدًا عليه، وجُمل الزَجَّاجي الّذي قدَّم عليه أكثر من شرح. وكان يُدرِّسُ إلى جانبها مؤلَّفاته الّتي زادت من تفوّقه وتميّزه في الميدان، حتَّى إنَّها لقيت قبولاً واسعًا لدى العلماء، وظلّت محطّ اهتمامهم بعد وفاته زمنًا طويلاً ولا سيما كتاب القوانين أو الملخّص كما يُسميه البعض الّذي اعتمدوه في التَّدريس إلى جانب كتب النَّحو الأخرى ذات الصَّدى الواسع. فحاصلُ القول لو لم يَضِعْ ممّا ألَّفه من كتب نحويَّة كتقييد كتاب سيبويه وغيره لبَلَغَ شهرةً أكثر.

- الهوامش:

1- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل. الرّباط- المغرب: ربيع الأوّل يناير 1982م، السّنة 9، وزارة الشّؤون الثّقافيّة، ع22، ص471.

2- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، تح ودراسة: عياد بن عيد الثبيتي، ط1. بيروت: 1986م، دار الغرب الإسلامي، السّفر1، ص69.

3- جلال الدّين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم د ط. لبنان: د ت، المكتبة العصريّة، مج2، ص125.

4- محمّد المختار ولد أباه، تاريخ النَّحو العربيِّ في المشرق والمغرب، ط2. بيروت: 2008م دار الكتب العلميّة ص302.

5- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص470.

6- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1، ص23.

7- صالحة بنت راشد بنت غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـ)، أطروحة الدكتوراه. المملكة العربيّة السعوديّة: 1411هـ، جامعة أم القرى، ج1 تح ودراسة، ص2 وص27.

8- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شـــرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1 ص29- 37.

9- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص489.

10- أحمد ابن القاضي، درّة الحجال في أسماء الرّجال، تح: محمّد الأحمدي أبو النّور، ط1. تونس/القاهرة: 1971م المكتبة العتيقة ودار التّراث، ج1، ص11.

11- المرجع السّابق، ص491.

12- أحمد ابن القاضي، درّة الحجال في أسماء الرّجال، ج3، ص270- 271.

13- صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـــ)، بحث مقدّم لنيل درجة الدكتوراه، ج1 ص2 وص7.

14- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1، ص23.

15- المرجع نفسه، ص40.

16- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنّحاة، مج2، ص125.

17- القاسم بن يوسف التجيبي، برنامج التجيبي، تح وإعداد: عبد الحفيظ منصور، د ط. ليبيا/ تونس: 1981م، الدّار العربيّة للكتاب ص278.

18- فهرس النَّحو، المصوّرات الميكروفيلميّة الموجودة بمكتبة الميكروفيلم بمركز البحث العلميّ وإحياء التّراث الإسلاميّ، إعداد قسم الفهرسة بالمركز. مكّة المكرّمة: د ت، جامعة أم القرى، كلية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة مركز البحث العلميّ وإحياء التّراث الإسلامي، ص87.

19- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص479.

20- ميلود التوري، الحركة اللّغويّة بالمغرب الأقصى: عصر المرابطين والموحّدين، بحث لِنيل دبلوم الدّراسات العليا في اللّسانيّات. الرّباط: 1992- 1993، جامعة محمّد الخامس، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، ص259- 260.

21- التجيبي، برنامج التجيبي، ص280.

22- محمّد المختار ولد أبّاه، تاريخ النّحو في المشرق والمغرب، ص305- 306.

23- صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الرّبيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـــ)، أطروحة الدكتوراه، ج1، ص81.

24- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص475-476.

25- المرجع نفسه، ص477.

26- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتيّ، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1، ص50.

27- محمّد حجي، "ابن أبي الرّبيع إمام أهل النّحو في زمانه" مجلّة المناهل، ع22، ص486-489.

28- المرجع السّابق، ص110- 121.

29- صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـ)، أطروحة الدكتوراه، ج1، ص37.

30- المرجع السّابق، ص185- 201- 582.

31- المرجع نفسه، ص49.

32- المرجع نفسه، السّفر1، ص131- 132.

33- يُنظر: نور الدّين الأشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، ط1. بيروت: 1955م، دار الكتاب العربيّ.

34- بدر الدين المُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، تح: فخر الدّين قباوة ومحمّد نديم فاصل، ط1. بيروت: 1992م، دار الكتب العلميّة، ص485.

35- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: أحمد شمس الدّين، ط1. بيروت: 1998م، دار الكتب العلميّة، ج1، ص485.

36- المرجع نفسه، ص123.

37- بدر الدّين المُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، ص330- 335.

38- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1 ص672.

39- محمّد ابن تاويت، "النّحو الأندلسيّ وابن هشام المصريّ" مجلّة المناهل. الرّباط: 1984م وزارة الشّؤون الثّقافيّة ع31، ص228.

40- ابن أبي الرّبيع، التّفسير، ص1ع/ صالحة بنت راشد بن غنيم آل غنيم، تفسير القرآن الكريم لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السّبتي (ت599- 688هـ) أطروحة الدكتوراه، ج1، ص86.

41- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي، البسيط في شرح جمل الزجّاجي، السّفر2 ص1083.

42- المرجع نفسه، السّفر1، ص345.

43- عبد الرّحمن أبو البركات ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، تح: جودة مبروك محمد مبروك مراجعة: رمضان عبد التواب، ط1. القاهرة: 2002م مكتبة الخانجي، ص371- 374. وحسن محمّد عبد الرّحمن أحمد، شرح ألفية ابن معط لأبي جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرُّعيني (779هـ) السّفر1- تحقيق ودراسة-، أطروحة الدكتوراه في اللّغة العربيّة. المملكة العربيّة السّعوديّة: 1994م، جامعة أم القرى، كليّة اللّغة العربيّة قسم الدّراسات العليا العربيّة، مج1، النّص المحقّق، ص40.

44- عبيد الله ابن أبي الرَّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر2 ص934. وعبد الرّحمن أبو البركات ابن الأنباري الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريّين والكوفيّين، ص290- 292.

45- المرجع السّابق، السّفر1، ص176.

46- بدر الدّين المُرادي، الجني الدّاني في حروف المعاني، ص420.

47- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص54. وعبد الله ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، د ط. بيروت: 1991م، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر، ج1 ص244.

48- ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ج1، ص315.

49- عيسى أبو موسى الجزولي، المقدّمة الجزوليّة في النَّحو، تح وشرح: شعبان عبد الوهاب محمّد، مراجعة: حامد أحمد نيل وفتحي محمّد أحمد جمعة، ط1. القاهرة: 1988م، أم القرى للطّبع والنّشر، ص111. وأثير الدّين أبو حيّان الأندلسيّ، ارتشاف الضّرب من لسان العرب، تح وشرح ودراسة: رجب عثمان محمّد، مراجعة: رمضان عبد التواب ط1. القاهرة: 1998م، مكتبة الخانجي ج3، ص1285.

50- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيلي السّبتي، البسيط في شرح جمل الزَجَّاجي، السّفر1 ص162.

51- السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص25- 26. وأبو حيّان الأندلسيّ ارتشاف الضّرب من لسان العرب، ج4، ص2179- 2180.

52- محمّد المبرّد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، ط3. القاهرة: 1994م، مطابع الأهرام التّجاريّة، ج4 ص202.

53- عبيد الله ابن أبي الرّبيع الإشبيليّ السّبتي، البسيط في شرح جُمل الزَجَّاجي، السّفر1 ص348. وأبو حيّان الأندلسي ارتشاف الضّرب من لسان العرب، ج4، ص1975- 1976. وابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب ج1، ص322- 323.

54- المرجع نفسه، ج1، ص322.

55- عبد الرّحمن المكُّودي، شرح المكُّودي (على الألفيّة في علمي النّحو والصّرف لابن مالك ومعه حاشية العلاّمة الشّيخ أحمد بن عبد الفتّاح الملوي والأزهري)، عناية ومراجعة: أحمد عوض أبو الشبَاب، د ط. المغرب: 2011م، دار الرّشاد الحديثة، ص114. والسيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج2، ص266.

56- المرجع نفسه، ج1، ص346.